وقد يكون فيما اتخذته فرنسا أخيرا من الخروج عن معيار الذهب وتخفيض قيمة الفرنك بالنسبة للعملات الأجنبية شيء من التخفيف على السائحين وإغراء لهم بزيارة فرنسا بعد ما انصرفوا عنها فى الأعوام الأخيرة، ولكن الظاهر أن التخفيض الجديد لم يحدث أثراً يذكر إذ صحبه ارتفاع مماثل فى الأثمان، فاذا صح ذلك، وإذا لم توفق الحكومة الفرنسية الى تخفيض معيار العيش وإخماد تلك النزعة الجشعة التى تبدو فى كل صنوف التعامل فأن أولئك الذين زاروا فرنسا أيام ارتفاع الفرنك واكتووا بنار هذا الغلاء، يترددون كثيرا فى العودة اليها

(***)

فى الأدب المقارن

شخصيات الأدباء
فى الأدبين العربى والانجليزى
للأستاذ فخرى أبو السعود

يكثر التشابه بين أفراد الجنس الواحد فى عالم الطبيعة فى الطبقات الدنيا من الأحياء، وكلما ارتقى الجنس فى سلم الحياة ازداد الاختلاف فى المظهر والصفات بين أفراد الجنس؛ وكذلك الحال فى المجتمعات البشرية: يتشابه الناس ويتقاربون فى المشارب والأغراض فى عصور الانحطاط، ويختلفون خلقاً وعبقرية فى عصور النهضات، ويتفرقون فى شعاب الحياة ودروب المطامح فلا يتفقون إلا فى تدفق الحياة فى نفوسهم وعلو هممهم وولوعهم ببعيدات الأمور، فالتشابه والاتفاق من أمارات الانحطاط. والاختلاف والتميز من دلائل الرقى

وذلك الشأن فى آداب الأمم: فان أظهر ميزات عصور النهضات فيها اختلاف مشارب الأدباء وتباين شخصياتهم واستقلال نظراتهم إلى الحياة ووجهاتهم فى الفن، فهم وإن اتفقوا على مبدأ أو مذهب فى الأدب، لا يتشاكلون ولا يكرر بعضهم بعضا ولا يُغنى أحدهم عن سائرهم، بل ينتحى كل منهم ناحية من الحياة يوكل بها، ويرى الحياة جماء بمنظار نفسه لا بمنظار غيره، وينفث فى أدبه خلاصة عبقريته الفردية؛ أما فى عصور إدبار الأدب فيتماثل الأدباء حذوك النعل بالنعل، ويتهافتون جميعاً على نموذج الأدب أو الأنشاء الأدبى، لا ينفكون يقلدونه ويعارضونه وينقلون بمحاكاته عن حقائق الحياة ولباب الفن، فيخرج أدبهم جميعاً صوراً مكررة من أنفسهم وأشكالاً ممسوخة من ذلك النموذج المحتذى أو القالب المصبوب

ويمتاز فحول الأدب الانجليزى، ولا سيما فى عصور نهضاته ببروز شخصياتهم واستقلالها واختلاف بعضها عن بعض اختلافاً تاماً، إلا فى اقتباسها جميعاً من نور الصدق، وإصدارها جميعاً عن معدن الشعور: فالنهضة الرومانسية فى مستهل القرن التاسع عشر مثلاً، كانت ذات أغراض معينة مشتركة بين جميع أعلامها: كانت ثورة على قيود الفكر وصناعة اللفظ وتقاليد النظم وعودةً إلى الطبيعة والبساطة، ونزوعاً إلى جمال الحياة، ومع ذلك يتباين فحول شعرائها وتبدو شخصياتهم بارزة واضحة الاختلاف فى الأخلاق والمشارب والأساليب:

فوردزورث كان موكلاً بالطبيعة وجمالها وأسرارها، مؤمناً بضرورة استخدام لغة النثر السهلة فى الشعر؛ وشلى كان معنياً بالاصلاح الاجتماعى وعدواً لدوداً للملكية والكنيسة والتقاليد الحمقاء؛ وكولردج كان هائماً فى عوالم المجهول وأغوار الماضى السحيق؛ وسكوت كان مغرماً بالعصور الوسطى وتاريخها فى بلاده اسكتلندا، متفنياً بمجدها وفروسيتها، محبياً لأغانيها الشعبية؛ وبيرون كان بوهيمى النزعة جرىء الفكرة مشغولاً بقصص الأبطال، جزل الأسلوب رائعه دون تدبيج ولا تروّ

ولنضرب مثلاً آخر مؤرخى الانجليزية الثلاثة، الذين توخوا الفن والأسلوب الأدبى فى تواريخهم: جيبون وماكولى وكارليل، فأولئك شخصيات ثلاث متميزة: فالأول رصين الأسلوب واللفظ، محكم البنيان ميال إلى الموازنة فى المعانى والازدواج فى التراكيب، والثانى براوح بين طويل الجمل وقصيرها، موالع بتصوير المناظر التى يمر بها تصويراً يقف بك أمامها وجهاً لوجه، كلفٌ بتأريخ مآثر وطنه وعظائم أبنائه ومواقف فخاره، أشدُّ تشيعاً بالوطنية وأقل نصيباً من النظرة الانسانية الشاملة من صاحبيه، والأخير قصير الجمل فجائى الأفكار، معنى بعظماء الرجال أخلاقهم وسجاياهم وآثارهم فى عصورهم

وقل مثل ذلك فى سائر مشهورى الأدباء الانجليز: كلهم

تختلف الشخصيات مستقلوها ، واضحو النفسيات ، متميزة شخصياتهم ونفسياتهم إحداها عن الأخرى ، تقاربوا في العصور أو تباعدوا ، اتفقوا في المذهب الأدبي أو اختلفوا ، وذلك أول دليل على حيوية الأدب ، وأصدق شاهد باستمداده من ينابيع الحياة الجارية ، لا من بطون الكتب الجافة ، فالحياة لا تفنى صورها تعمداً ، وهي تبدو لكل أديب صادق النظر والشعور في صورة جديدة

وإنما تشابهت شخصيات الأدباء وتماثلت آثار الشعراء في عصور تدهور الشعر في أواسط القرن الثامن عشر ، حين بعد الشعراء عن الطبيعة وانغمروا في المدينة ، وهجروا الحياة وغرقوا في صفحات الكتب ، وأعرضوا عن وحي شعورهم وقلدوا من سبقوهم ، فعدوا بوب ودريدن المثل الأعلى الذي يحتذى ، والمطلب الأسمى الذي لا يطلب سواه ، واحتذوهما في الغرض والأسلوب والعروض ، وتعاوروا أشعارهما معارضة واقتباساً واختلاساً ، فخرجت آثارهم جميعاً متشابهة متشاكلة بعيدة عن الفن لا تصور شخصيات قائليها ، وخلوا جميعاً من دون ذينك الشاعرين اللذين احتذوهما . فلا يهتم بآثارهم اليوم إلا مؤرخ الأدب الدقق المستقصي

وفي تاريخ الأدب العربي شخصيات مستقلة واضحة متميزة ، مخالفة كل منها للأخريات قولاً وخلقاً وأسلوبا ، كالمعري الحكيم المشفق على أمة الطير والحيوان ، المعنيّ بتنازع البقاء وبنى الأحياء ، والمتنبي الطموح « التعاطي للكبر وعلو الهمة » كما قال بعض معاصريه ؛ وابن الرومي المشغوف بالجمال الطبيعي والانساني ، المهوم بنعيم الحياة ولذاتها ، الدقيق النظرة ، الرائع التصوير ؛ وأبي نواس الماجن المستهتر ؛ والجاحظ الموكل بفنون الثقافة ؛ وبديع الزمان المعتد بنفسه ، الحريص على المادة المكثر بثروته اللغوية ومهارته الصناعية ، السهل الديباجة ، الرائق الفكاهة . كل هاتيك شخصيات بارزة متميزة

ولكن بجانب أمثال أولئك حَفْلٌ كبير من مشهوري الأدباء الذين آتتنا آثارهم وانحدرت الينا بعض أخبارهم ، ولكن شخصياتهم مبهمة مطموسة ، يكتنفها الضباب ولا يستجليها الخيال ، وتتشابه كثيراً حتى تُضيفُ آثار بعضها الأدبية إلى آثار الأخرى فلا ترى فارقا ، ولا تحس مانعاً يحول دون ذلك من تباين الأساليب أو اختلاف النفسيات أو تضاد النزعات ؛ بل إن شخصيات بعض من تقدم ذكرهم من فحول العربية ، على كثرة ما وصل الينا من كتاباتهم وأخبارهم ، مبهمة في كثير من نواحيها

ولا ريب أن لطول العهد وكر الزمن أثراً كبيراً في تبديد الآثار ، وتغيير الأفكار والمشارب والأذواق ، وإحاطة شخصيات المتقدمين بغمائم من الغموض والغرابة مهما تحدث الشعراء بذكر الخلود ؛ ولكن هناك عدا هذا عوامل لابست الأدب العربي فأدت إلى غموض كثير من شخصيات كثير من أعلامه ، وتشابهها واختلاطها ، أولها شيوع الأمية في الجاهلية وصدر الاسلام ، مما أدى إلى تبدد أخبار كثير من الشعراء وضياع أشعارهم واختلاطها ، ودخول الزيف والتمويه عليها ، مع أن شعر ذينك العصرين كان أصدق حديثاً وأكثر إفصاحاً عن شخصيات قائليه من شعر العصور التالية ، لو لم تعبث به يد الأمية والنسيان

ولما انتشرت الكتابة لم تكن الطريقة التي جرى عليها المؤرخون في ترجمة الأدباء هي المثلى : فقد اقتصروا على تواريخ ووقائع — كوفود الأديب على ممدوح أو اتصاله بديوان أمير — لا أهمية لها في شرح نفسياتهم ، ولا غناء وراءها في توضيح شخصياتهم ، وجاء كثير من التراجم مختزلا مجتزأ . وناقض بعض الروايات بعضاً ، وصعُب تصديق بعضها ، فظلت جوانب من تلك الشخصيات مغلقة ؛ فما أقل ما يعرف عن عبد الحميد وابن المقفع والطائي والبحتري وابن الرومي والمتنبي ، فهم لا يكادون يظهرون في ضوء التاريخ إلا في جناح أمير أو ركاب عظيم ؛ أما نشأتهم فمهملة ، وهي التي لها أكبر الأثر في آدابهم ؛ وأما حياتهم اليومية فمغفلة ، كأن ليس لها خطر ولا شأن

وما قصر فيه المؤرخون لم يعوضه الأدباء أنفسهم : فكثير منهم لم يصوروا أنفسهم في أشعارهم ورسائلهم صورا واضحة ، ولم يودعوها خلجات أفئدتهم ونظراتهم في الحياة ، بل ما أكثر الكتاب الذين قصروا بيانهم على إنشاء رسائل الأمراء ، والشعراء الذين توفروا بأشعارهم على مديح أرباب النوال ، فامتلأت آثارهم الأدبية بذكر أناس كثيرين ووصف أحوالهم وأفكارهم ، فيما عدا منشئي تلك الآثار الأدبية أنفسهم وأحوالهم وأفكارهم ، فلا غرو جاءت آثارهم متشابهة ، لا توضح شخصياتهم ولا تنهض ببعض ترجمتهم ؛ ومن العجيب أن أكثر الشعراء

إفصاحا عن أفكارهم الخاصة وحاجاتهم وشعورهم ، كانوا هم المجان والخلعاء الذين لم يكن لهم شعور ولا تفكير فى سوى اللذة والعبث كبشار وحماد

فالناظر فى ديوانى الطائى والبحترى ، وفى رسائل ابن العميد والصاحب ، لا يعثر إلا نادراً على فقرة أو أبيات مصدرة عن شعور شخصى للأديب هو ببيانه محتفل ، أو فكر جليل هو فى إذاعته جاد ، ولا يرى فى الشعر إلا مديحا وهجاء وشكوى للزمان وافتخاراً بعلو الشأن ، أو ما كان يجب للشاعر من علو الشأن ، وضرباً للأمثال واصطناعا للحكمة ؛ ولا يرى فى النثر إلا تنميقاً وتدبيجا واقتباساً وتكاثراً بسعة الاطلاع ، فلا غرو يتشابه أولئك الشعراء إلا تفاوتاً قليلاً فى الصياغة ، وأولئك الكتاب إلا اختلافا بسيطا فى الأسلوب ؛ فاذا أنت نزعت جانباً كبيراً من نظم أولئك الشعراء ، أو نثر أولئك الكتاب ، لم تشوه آثارهم بانتزاع ما لا غنى عنه لبيان نفسياتهم ؛ وإذا أضفت بعض آثارهم إلى بعض لم يَعُقْك عائق من تميّز شخصية عن شخصية أو اختلاف منحى عن منحى

وهناك عامل خطير لايقل عن هذا أهمية فى تشابه شخصيات الأدباء وتماثل آثارهم : ألا وهو نزعة المحافظة والتقليد التى صاحبت الأدب العربى منذ قامت الدولة العربية وانتشرت اللغة فى الأقطار ، فقد اتُّخذ الأقدمون مُثُلاً عُليا فى البلاغة والشاعرية ، وألح المتأخرون على آثارهم وأغراضهم فى القول ومعانيهم محاكاة وتوليداً وتخريجاً ، وجالوا جولان المتقدمين فى ميادين المدح والهجاء ، والفخر ، وشكوى الدهر ، وضرب المثل واستخراج الحكمة ، واحتذوهم فى النسيب بليلى وهند والوقوف بالأطلال واستحثاث المطى وذرع الفلوات ، فكان للأدباء فى توالى العصور تراث أدبى واحد يتكرر ولا يكاد يتغير ، ويتشكل ولا يكاد يتحول ، ويأخذ منه كل أديب ويكاد يفنى فيه ، وينهل منه وتكاد شخصيته تغرق فى عبابه

فتقليد المتقدمين دون الطبيعة ، واتخاذهم مثلاً عليا يصدر عنها القول ، بدل أن يصدر عن الشعور الفردى المستقل ، من أكبر أسباب ركود الأدب وتشابه آثار الأدباء وتقارب شخصياتهم ؛ ومن ثم جاءت آثار كثير من الأدباء المتأخرين مُتَشَاكلة مُتشابهة جميعها لآثار المتقدمين ، على تباعد الزمان واختلاف المواطن ؛ وظلت شخصياتهم غامضة لأنهم لم يَجْلوها فى كتاباتهم جلاء صادقاً

ولما استفحلت الصناعة اللفظية ، واشتد الحرص على المحسنات البديعية ، غرقت معانى الشعر وأغراضه وشخصيات الأدباء جميعاً فى سيل من الألفاظ المرصوفة والعبارات المقتضبة من آثار المتقدمين ، وأصبحت دواوين الشعراء جميعاً ديواناً واحداً مملوءاً بالنكات اللفظية ، لا فرق بين أوله وآخره . وما أشبه ما قاله البهاء زهير بما قاله ابن نباتة بما قاله صفى الدين من نسيب متناه فى ادعاء الرقة والظرف ، ووصف لمجالى الطبيعة تُخلط فيه محاسن الطبيعة وصورها ببهارج الألفاظ وزخارفها مزجاً عجيباً ، وتُتطلَّب البراعة بأقحام مصطلحات العلوم كالنحو والمنطق والنجوم

ولا ريب أن أمتع الأدب للنفس ، وأعلقه باللب ، ما أبان عن شخصية قوية ، ونفسية مستقلة ؛ ومن ثم نرى أن ذوى الشخصيات الأصيلة والنظرات الصادقة فى حقائق الحياة ، كالمتنبى وأبى العلاء وابن الرومى والجاحظ ، هم الذين حظوا ، دون غيرهم من أدباء العربية الأقدمين ، بالدرس الطويل والترجمة المفصلة من كتاب عصرنا الحالى ، لأن آثارهم تشوق الدارس وتحفزه إلى الكتابة والتعليق والنقد ، وتحوى صوراً من أنفسهم يطيب للمطلع التأمُّلُ فيها والنظر إلى الحياة فى ضوء أفكارها . ولو حاول ناقد أن يترجم لمروان بن أبى حفصة ، أو مسلم بن الوليد ، أو مهيار ، أو البحترى ، أو الصاحب ، أو الحريرى ، ترجمة مفصلة تشرح نفسية المترجم وتميط عن نزعاته وميوله وعوامل ذلك ، مستمداً شرحه وتحليله من آثار الكاتب أو الشاعر الأدبية التى اشتهر بها ، لكان نفسه شططا

فالناظر فى الأدبين العربى والانجليزى ، لا يسعه إلا أن يلاحظ أنه يجد فى تاريخ الأخير شخصيات قوية مستقلة ظاهرة التباين والاختلاف ، مصورة فى أعمالها الأدبية حتى لتكاد تغنى بها عن ترجمة المترجمين ، وتحوى كتاباتها صورها النفسية الداخلية فلا تكاد تترك للمؤرخ أكثر من سرد التواريخ وبعض الوقائع وهى لذلك ممتعة جذابة يحس القارئ أن بينه وبينها على اختلاف اللغة والزمن والوطن تجاوباً وصلة شاملة هى صلة الانسانية ، ويطربه أن يراها تعالج نفس المشاكل وتخامرها نفس الخواطر والخوالج التى تساوره ، وأمثال تلك الشخصيات الواضحة أقل عدداً فى تاريخ الأدب العربى

فمرى أبو السعود